الغداء الأخير

عندمـا دقَّ جرسُ الباب؛ اتجهـت إليه بهدوء لأفتـح، وقبل أن أفعل تطلعتُ لزياد وهو يلعب بألعابه الصغيرة في منتصف الحجرة، ابتسـمتُ وفتحتُ الباب.

كانت زوجتي ممسكةً في يدها بزياد! تحتضنه مبتسمةً وهي تقول: (زياد محضر لك مفاجأة النهاردة). يدخلان وأنا متوقفْ في مكاني أحاولُ أنْ أجدَ لسـاني. تقفُ هي فجأةً أمام الحجرة المفتوحة تنظر داخلها مطلقةً شهقةً، كتمتهـا بوضع كفِّها على فمِهـا. أقوم بدفع زياد سريعًـا للحجرة الثانية. يدخل سريعًا دون أن يتنبه لشيء.

تنظر لي غير فاهمة فأقول لها: (عديت على الحضانة وأنا راجع من الشغل، قولت أجيبه بدري النهاردة).

تحاشينا الكلام في الموضوع تمامًا، تعاملنا كأنهما شخصٌ واحد. تُحضر الطعام وتضعه بآلية. نظرتها مشتتة، وعيناها غائبتان بعيدًا. تجمعنا حول المنضدة. لم يجلسا جانب بعضهما. أجلستُ زياد الذي أحضرتُه جانبي، وهي أجلستَ زياد الذي أحضرَتْهُ جانبها. ينظران لبعضهما قليلًا، ويتناولان طعامهما كأن ليس هناك شيء. كأنَّهما معتادان على وجودهما سويًّا هكذا، وإن بدا في أعينهم الصغيرة قليل من الحيرة.

مئات الأفكار تتدافع في ذهني وتتعثر وتتآكل قبل أن تصل لفمي. هي أيضًا. أشعر بهذا، ولكننا صمتنا. فضَّلنا الصمت على كلام لن نفهم منه شيئًا.

متطابقان كأنهما انعكاس مرآة. الصوت والضحكات المتقطِّعة الصغيرة، والشعر الأشقر المتناثر كهالة ضوء. يلعبان سويًّا في منتصف الحجرة، يعرفان مكان ألعابهما، وأماكنهما السريَّة التي يخبئان فيها الأشياء. ابني يرتدي بيجامة زرقاء، والآخر يرتدي واحدة رصاصيَّة اللون.

انسحبتُ -ربَّما هروبًا- لأنام. أدفعُ رأسي أسفل الوسادة، أحاول أن أفكر في ذلك الوضع. وماذا سنفعل. أشعر بفتورٍ وغضب، عازمٌ على لومها على ذهابها للحضانة؛ مع علمها أنني المُكلف بإحضاره من هناك يوميًّا. هي السبب في هذا، وعليها أن تحله. عليها أن تقوم بإرجاع من أحضرَتْهُ، لا أدري كيف! ولكن عليها أن تفعل. تأخذُه في يدها وتذهب ثانية للحضانة وتقول لهم: (بابا زياد جابه قبل ما آجي بساعة، ومش عارفة مين دا).

نعم. زياد الأول هو ولدنا. لم يكن هناك غيره بالحضانة عندما كنت

هناك. لا أدري من أين أتى هذا. لا يخصني. لن أفكر، وستحل هي الموضوع كما صنَعتْه.

تنبَّهــتُ فجأةً أنها دخلت الغرفة. كنــتُ في مرحلة بين النوم واليقظة؛ حالة من الخدر دخلتُ فيها فنسـيتُ لثوانٍ ما نحن فيه. كانتْ تمسك زياد من يـده. زياد ذي البيجامـة الرصاصيَّـة. قالت في حسـم: هاينام معانا، السرير اللي جوا مش هايكفي.

ابتعدتُ تلقائيًا لطرف السرير؛ لأفسح لهما المكان. وضعَتْه بيننا، وقامتْ بتغطيتِـه والتربيت عليه بحنان. أردتُ أن أقول لها إن هذا ليس ابننا، وأن زيـاد ابننا وحده بالخارج. هذا ليس ولدنا. لكني نظرتُ لعينيها الدامعة، وشفتيها الراجفتين فصمتُّ. أشـعر بصداعٍ عاتٍ، وشعور جارف بعدم الراحة والقلق. ماذا أفعل؟ وكيف أتصرف؟

نمتُ من الإرهاق نومًا باردًا مُتقطعًا. حلمتُ بأني استيقظتُ في الصباح، كان البيتُ ممتلئًا بأطفال كُثر، عشرات كلهم زياد. يبتسمون ويضحكون، ويلعبون مع بعضهم البعض. استيقظتُ منتفضًا. لأجد العرق البارد يغمر وجهي وصدري. كانت نائمة، محتضنة زياد النائم الوديع. دققتُ في ملامحه، واقتربت لأشـمَّ رائحتِـهِ الطفلة. كان هو ولدي. نفـس الملامح الوادعة المستكينة. نفس أنفاسه الهادئة الحالمة.

نهضــتُ من الفراش، خرجتُ بخطواتٍ مضطربةٍ للحجرة الأخرى، فتحتُ بابها ببطء ودخلتُ. كان الضوء الخافت مسكوبًا على وجهه النائم. شـعرتُ بأنفاسـه متقطعة غير منتظمة أو مرتاحة، اقتربتُ منه بقلق. كان

نائمًا وعـلى وجهه وفي عينيه بقايا دموع. انقبض قلبي، اندسسـتُ سريعًا جانبـه واحتضنتُه، انتفض مفتـوح العينين، حاولتُ ضمَّـه لكنَّه انتفض أكثر وابتعد للخلف. قلتُ له بلوعةٍ: (شششششـش.. ماتخافش يا حبيبي. أنا بابا). تطلع فيّ لثوانٍ قبل أن يرتمي في حضني باكيًا. ضممتُه بقَّوةٍ، مُربتًا على ظهـره الصغير. قبَّلتُ وجهه الجميل وسـط الدموع بصوته الطفولي والنشـيج: (كنت عاوز أنام جنبكو.. دخلـت لقيت التاني هو اللي نايم.. أنا زعلان).. حاولتُ تطييب خاطره. قبَّلتُه ثانية.

اعتدلتُ في جلسـتي وأجلستُه على فخذي، أرحتُ رأسه على صدري وقلـتُ له: (معلش يا حبيبـي.. أنا أهـو اللي هنـام جنبك.. معلش مش هاسيبك لغاية الصبح).

اسـتكان قليلًا وإن ظلَّ ينشـجُ ببطء إلى أن نـام. لا أدري متى نمتُ؛ لكني استيقظت على صوتها وهي تهتف: (أنت بتعمل إيه عندك؟). فتحتُ عينـيَّ أنظر إليها. احتجتُ قليلًا من الوقت لأفهم أين أنا، لم أرد. نظرتُ إليها كانتْ تمسـك في يدها بزياد الآخر، مرتديًا ملابس الحضانة وشنطته الصغـيرة في يدها. انتفضتُ واقفًا صائحًا: (إيه اللي بتعمليه انتي؟ ورايحة فين؟). واصلتْ لمَّ أشـيائهِ في شـنطته وهي تقول بحسـم: (رايحة الشغل طبعًا، وهاخد زياد في إيدي للحضانة). (طب وزياد دا؟) قلتُ في حيرة، فنظرتْ لي قليلًا دون أن ترد. هببتُ من الفراش مقتربًا منها مُكررًا: (طب ودا؟؟). أمسكتْ زياد جانبها من يده بقوَّة، قبل أن تقول وهي تتجه للباب

بسرعة: (اتصرف). وفتحَتْ باب الشـقَّة، وخرجتْ منه ساحبةً الصغير خلفها، وأغلقتْ الباب خلفها بقوَّة.

مع صوت انغلاق الباب العالي انتفض زياد جانبي صاحيًا. نظرتُ له دون أن أعرف ماذا سأفعل. كانتْ ملابس الحضانة الخاصة به مُلقاةً بإهمال على طرف فراشه منذ الأمس. فكرتُ أنْ ألبسَه إياها وآخذه للحضانة؛ لكن الآخر هناك. ماذا سأقول لهم، وكيف سأفسر الأمر؟ بالتأكيد هم يعلمون. هي أحضرتْ الآخر من هناك بالأمس بعد أن أحضرتُ أنا الأول. تنبَّهتُ لزياد وهو يحتضنني. نظرتُ إليه؛ صغير لا يفهم ما يحدث. تكلم بصوتٍ خافتٍ للغاية: (أنا خايف). ربتُّ عليه وقمت باحتضانه: (ماتخافش. أنا معاك).

صنعتُ له إفطاره، ولعبتُ معه بألعابه قليلًا. مرَّ الوقت دون أن أشعر، أو أفكر. إلى أن دقَّ جـرس الباب، فتذكرتُ، اتجهتُ ببطء لأفتح. كانتْ هي ممسكة في يدها بزياد الآخر. دخلتْ دون كلام، اتجهتْ سريعًا لغرفتنا دون أن تلقي أيَّ نظرةٍ على زياد الجالس بغرفته.

كنتُ متوترًا حائرًا كما لم أكن من قبل، توقف عقلي عن العمل، وشعرت بعجـزٍ تام عن التصرف، أو الاسـتيعاب. أغلقتُ على زيـاد باب غرفته، واتجهتُ إليها.

دخلـتُ الغرفة فنظرا إليّ كلاهما دون كلام. اقتربتُ منها، وهمسـتُ: (هنعمـل إيه؟ أنا دماغي واقفة) ظلـتْ تنظر لي دون كلام. أكملتُ تغيير ملابس الصغير أمامها قبل أن تقول بصوت هادئ أدهشـني: (مافيش..

اتـصرف أنت في اللي جبته دا. زيـاد ابننا أهو)، وقامتْ باحتضان الصغير أمامها.

انتفضتُ وقلتُ بصوتٍ عالٍ: (أتصرف في إيه بالظبط؟ إزاي.. هاعمل فيه إيه؟ ومين قالك إن دا ابننا.. ما التاني أنا جبته الأول من الحضانة، ولو أنتي مكنتيش روحتي الحضانة مكنش هايبقى فيه واحد تاني). نظرتْ في عيني بنظرة لم أفهمها، قالت كأنها لم تسمعني وبلهجة عجيبة (اتصرف.. يا إما هاتصرف أنا).

خرجتْ ساحبةً إياه خلفها للمطبخ. ذهبتُ لحجرة زياد، فتحتُ بابها ببطء، حاولتُ أن أرسـم على وجهي ابتسـامة قبل أن أدخل. كان جالسًا في منتصف الحجرة يلعب بألعابه المبعثرة. بدا أنه نسي قليلًا؛ لأنه نظر إليّ وابتسم. اتجهتُ للشباك المغلق، فتحتُه، وجلستُ جانبه، أشعلتُ سيجارة شاعرًا بالضياع.

جاءني صوتُها بعد قليل أن (الغدا خلص). لم أرد، انتهيتُ من تدخين السيجارة. ناديتُ على زياد فالتفتت إليّ بابتسامة مشرقة. أمسكتُه من يده، وقمتُ بتقبيله. خرجنا للصالة. كانت جالسة بجانبها زياد الآخر.

جلسـتُ وأجلستُه جانبي، قمت بوضع الطعام في طبقه الصغير، وفي طبقي. كانتْ تأكل دون شـهية، ونظرتُها مُعلقة بالفراغ. لم يكن لي شهيَّة؛ لكنـي أكلـتُ. كان هو يلوك طعامه ببطء. نظـرتُ للآخر جانبها قبل أن أشـعر بالموجودات تهتزُّ. فجأة سقطتْ من يدي الملعقة، وشعرتُ بظلام كثيف.

سـمعتُ بكاء وصراخ أحد الزيادين، لم أتمكن من رفع رأسي -الذي هوى بـين الأطباق- لأرى من منهما الذي يصرخ. كان آخر ما سـمعتُه، صوتها المتقطع البعيد: (يالا يا زياد بوس بابا.. سلّم عليه). شعرتُ بشفاهٍ صغيرة مبللة تقوم بتقبيل خدي، قبل أن يبتلعني ظلام له طعم صدئ.